

## الموسيقى التونسية

لقد وضعت من القرون القديمة عدة تعاريف للموسيقى ساير فيها اصحابها وجهة نظرها واختلاف اختصاصاتهم فهناك الشاعر والفنان وهناك عالم الصوت والرياضيات وهناك الفيلسوف وغيرهم

فكل ينظر اليها من زاويته ويسير بها في المهيع الذي خطه لحياته  
ومن أهم ما قيل فيها من الوجة الفنية أو الشعرية قول 1874 - 1934 انها هي الجمال المسموع - وقول الملحن العظيم 1780-1828 ان الموسيقى هي الحلقة التي تربط الروح بالحس

ومن الوجة العلمية الواقعية قول ماكفرسون الشاعر الاكوسي المتوفى 1796 الصوت الموسيقى نبذبات منتظمة وموقته في الهواء وارى ان الموسيقى هي الصوت الذي يعبر عن احساسيس كامنة في البشر لا يقدر عن الافصاح عنها باللسان ويقول عنها المرحوم شيخ الادباء محمد العربي الكبادي انها لذة الحياة التي لا تتطلب مجهودا من المستثمر لها ولا تلكف مشاق

واما كلمة موسيقى فاصلها يرجع الى العهد اليوناني وهي عندهم مثل بقية الفنون من اختصاصات الالهة وهي تمليها أو تضعها في روح العازفين أو المطربين الذين صاروا بذلك يعرفون باسم موزيكوس " وتجولت هذه الكلمة في مختلف البلدان ودخلت في مختلف اللغات وهكذا تولد عنها اسم الموسيقى بالعربية و بالفرنسية وموزكا بالاطالية اختلفت اللهجات والاصل واحد

وقد ظهرت الموسيقى في العالم منذ ان ظهر الكون فقد ولدت مع خربير المياه وزفير الرياح واصوات الحيوانات وتصنع البشر بعد ان اخذ يرسخ شيء فشيء في المدينة وهكذا يقول عنها العلامة ابن خلدون في المقدمة بعد ما ضبطها بانها صناعة توقيع الصوت حتى يكون نغائم تأليف الانغام بعضها الى بعض على نسب متارفة فيلذ سامعها لاجل ذلك التناسب قال عنها من جهة اخرى انها تحدث في العمران اذا توفر وتجاوز حد الضروري الى الحاجي ثم الى الكمالي وتفننوا فتحدث هذه الصناعة انه لا يستدعيها الا من فرغ من جميع حاجته الضرورية والمهمة من المعاش والمنزل وغيره ..... الى آخره

ان تعليق ابن خلدون هذا لا يرتبط الا بالتقدم الصناعي في الموسيقى اما مجرد وجودها سليقة فهو يرتبط بوجود البشر وللبيئة التي يوجد فيها هذا البشر تأثير كبير على نوع الموسيقى

التي تنبعث نه وهذاليس بالامر الغربي اذا اننا نشاهد تأثير البئة في طباع الناس وحتى في خلقتهم.

وعلى أساس نظرية العلامة ابن خلدون يتقرر لدينا ان الموسيقى ازدهرت وتقدمت وصارت صناعة مرموقة مع المدنيات القديمة التي انبعثت من الشرق الاقصى واخذت تسير نحو المغرب على مر القرون والبحوث التاريخية تشهد بذلك وقد تقسمت قديما الى نوعين فصلت بينهما سلسلة " الهملايه" بالهند فالقسم الشرقي بقي على حالته الاصلية التي تتمثل في تركيب المسافة الصوتية التي يصعد فيها من صوت الرجل الخشن المعروف في الاصطلاح بالقرار - الى صوت المرأة الرقيق المماثل له والمعروف بالجواب - قنا ف تركب هذه المسافة من خمسة أصوات وهذا التركيب المعروف ب( ) - والقسم الغربي الي غربي سلسلة جبال الهملايه تطور مع مختلف الحضرات الهندية والفارسية والمصرية والعبرية والفينيقية واليونانية والرومانية والعربية فهذه المجموعة من الحضرات ولدت نوعا خاصا من الموسيقى جعل المسافة الصوتية التي تتركب في الشرق الاقصى من خمس درجات تتركب بعد تلقحها بما جلبته لها هذه المدنيات من سبع درجات عوض الخمسة تكتمل بدرجة ثامنة هي المقابلة الي درجة الجواب - ومن ذلك سميت هذه المسافة الصوتية الي التي بين صوتي القرار والجواب بالكلمة اليونانية " التي يرجع اصلها الي اسم المهرجانات حفل تدوم ثمانية ايام

لقد كان متحدا في اصله بين بلاد قسم العالم المعروف والموجود بين سلسلة جبال الهملايه بالهند من الشرق والمحيط الاطلسي من الغرب ودامت هذه الوحدة في الاصل مع اختلاف جزئي في كيفية تركيب السلم الموسيقي المكون للديوان الو في تحديد المنازل التي يعتمد عليها اكثر من غيرها في هذا السلم واستمت هذه الوحجة الي القرن التاسع ميلادي حيث خطت اروبا طريقا جديدا لموسيقاها يعتمد على توافق الاصوات وتناسقها مع القاء او عزف مجموعة منها مختلفة الدرجات في آن واحد وهذا ما يسمى " بالهارمني" وقد اخذا التطور او الخروج بالموسيقى عن العادي في أوروبا مكانه واستقرار ببداية العهد الكلاسيكي أي خلال القرن الساد عشر وقمس حينئذا نوع الموسيقى المنتشرة بين الهملايه والمحيط الاطلسي الي ما خرج عن العادي وهو ما يوجد شمال البحر الابيض المتوسط وقد عم اروبا والبلدان التي نزحت اليها جاليات اوروبية مثل البلاد الامريكية وما بقي في نوعه مع تطور داخل هذا النوع وهذا يعم جنوب حوض البحر الابيض المتوسط وشرقية مع جانب من البلدان الاسيوية دون ان نتعدى الخط العمودي الذي يمر بجبال الهملايه

وصار حينئذ هذا اقيم يعرف باشرقي والقسم الجديد يعرف بالغربي وتونس وان كانت محط رحال عدة حضرات قديمة فباتصالها المتين بالامة العربية المشرقية والمغربية واعني بذلك المدرسة الاندلسية منها وبالامه التركية بقيت في القسم الموسيقي الذ نعتناه بالشرقي

وتوجد بعض الامم في البلقان واوسط اروبا واسبانيا وجدت نفسها في التيار الاروبي مع وجود تأثير شرقي متين في الاوساط الشعبية على الخصوص فهذه لها صفة خاصة وقد حاول الكثيرون منها ايجاد رابط بين النوعين والحديث عن ذلك يدخلنا في بحث فني يرنا الى العبارات الاصطلاحية التي لا تفيدنا في هذا الموطن

فالموسيقى التونسية حينئذا جزا من الموسيقى الشرقية بفة عامة ومن الموسيقى العربية بصفة أخص والمعروف من خلال الكتب العربة التي تحدثت عن هذا الفن والتي من اهمها كتاب الاغاني لابي الفرج الاصفهاني انه لا وجود لموسيقى آلية عند العرب فكلما ذكروا صوتا الا وأنوا بالابيات الشعرية التي انشدت في هذا الصوت ومن الغربي انا عثرنا في البادية التونسية على قطعة معزوفة بالقصبة تمثل اسطورة شعبية تعرف بعنوان ترق الصيد نسمح خلالها زغاريد النسوة وطلقات البارود فهذه القطعة فريدة في نوعها ولا يوجد من التراث العربي مماثل لها ومنذ وطلقات البارود فهذه القطعة فريدة في نوعها ولا يوجد من التراث العربي مماثل لها - ومنذ ثلاثة قرون تكونت معزوفات في البلاد الفارسية تحت اسم "بيشرو" وقد استعيرت هذه الكلمة التي معناها الذهاب أمام الي الطليعة لاستعمال القطعة مقدمة في الحفل وانتقلت فيما بعد الى تركيا وتحرق عنوانها وصا "بشرف" وقد انتقلت هذه البشارف مع الاحتلال التركي وصارت تعزف في كل البلاد العربية الي الحدود التونسية ففي تونس والجزائر أخذ العنوان والفكرة ووضع عليها قطع خاصة تتماشى في نغمها مع روح البلاد وطابعها الخاص وقد اجرينا في السنة الماضية ندوة فنية حول البشرف في نطاق اللجنة الثقافية.

واصدر كتابة الدولة للتربية القومة نشرية ضمت اغلب الشارف التونسية فت جمعها المعهد الرشيدي مرسومة بالترقيم الموسيقي مع التعليق لها وبيان اوزانها وقد اشتهرت البشارف التونسية في الحفلات ويمتاز فيها عازفوا الكمانجة وآخرهم الشيخ احمد بطيخ وخيلو الصغير او عازفوا الكلارينات وآخرهم الملقب بعزيزي بعد الزاق واشتهرت ايضا ف فرق الموسيقى النحاسية ولكم جزءا من احد هذه البشارف -

ثم ان تونس لم تقف عند حد انتاج المعزوفات بانلسخ على منوال الفرس أو الايتراك في  
البشرى بل وضعت قطعة موسيقية تصدر بها النوبة من المالف الاندلسي وهذه القطعة تمتاز  
باشتمالها على اربعة اجزاء أولها عزف جماعي لا يعتمد وزنا موسيقيا خاصا والثاني موضوع  
على وزن بطيء والثالث على وزن اكثر من ه سرعة الرابعوالاخير على غاية من السرعة كان  
الاول يسمى استفتاحا والبقية المصدر ومنهم من يفرد هذا الاسم بالقسم الاول منه ويسمى الثاني  
بالطوق والثالث السلسلة وسترون في المثال الآتي وجاهة تسمية الجزأ الاخير بالسلسلة لانه  
يتركب من حلقة واحدة تعاد على درجات مختلفة تنزل من الجواب الى القرار وهذه القطعة مؤلفة  
من جهة اخرى على الطريقة التي سنها الموسيقار العربي زرياب بالاندلس في اسلوب التأليف  
الموسيقي والتلحين حيث كان يبدأ كما ورد في نوح الطيب بالنشيد اللو شدوه بدون أي نقر كان (   
وهذا يقارن بالاستفتاح ) ويأتي اثره بالبسيط (وهذا يتماشى مع الوزنين الاولين للمصدر ) ويختم  
بالمحركات والهزاج (وهذا هو السلسلة ) - وما دما قد وصلنا الى النوبة يجدرنا الحديث عنها بما  
يبرز ما فيها من مجهود تونسي بحت فالنوبة في اللغة هي النيابة وقد تغيرت في الاصطلاح  
العامي وصارت تدل على الدور المعين فيقال "توبتك" أي " دورك" وبما ان الغناء الندلسي  
موضوع لازمنهمعينة ولمناسبات مضبوطة يقالفي الوقت المحدود الآن نوبة المايه مثلا أي الآن  
جاء دور غناء القطع الملحنة عل ماقم او صوت المياه الذي افرد للمصباح ويشتمل على  
موشحات واجال لها ارتباط بالصباح ومنها = نشر الزهر فاح \*\* طير الايك صاح \*\*  
اقبل الصباح الليل ولى

فهذا الاصطلاح موحجفي كل بلاد المغرب العربي ولم تزد تونس على ذلك الا بترتيب  
القطع في النوبة على طريقة مخصوصة ويجعل مقدمة موسيقية لكل نوبة ويجعل معرزة ثانية  
وسط النوبة توشي بها القطع الغنائيةوتسمى التوشيه ويجعل فواصل موسيقية صغيرة تنسق وتربط  
بين القطع التي تشتمل عليها النوبة ولايكم تفصيل النوبة على الطريقة التونسية.  
سبق لها ان اسمعناكم مقدمتها وهي الاستفتاح والمصدر باثرها تدخل الفرقة في مقدمة  
اخرى صغيرة تشتمل على وزنيي يسيران من السرعة الى البطء يدخل باثرها المطرب الاول او  
المجموعة الى انشاد بيتين من الشعر يعيد منهما البيت الاول وتفصل بينهما فواصل موسيقية  
صغيرة ويسمى ذلك الدخول والابيات كما ستسمعون -

نرجع بعد ذلك الى مقدمة ثانية مثل الاول ف التركيب تدخل باثرها المجموعة في قطعة او اكثر من الموشحات او الازجال ملحنه على وزن بطي يشبه وزن الزنبا ويسمى الطايحي وقد اعطي هذا الاسم لهذا النوع من اقطع ويكون دور العزفين هو اعادة موسيقى كل بيت من هذه البطايحيه عزف فواصل صغيرة بين البطايحي والبطايحي كما ستسمعون وهو جزءاً خير من بطايحي اول وقسم الو من بطايحي ثاني -

باثر ذلك تدخل الفرقة في المعزوفة التي تقدم ذكرها والمعروفة بالتوشيه فهي تتركب من وزنين سريع ثم بطي ويفسح فيها المجال الى العازفين الممتازين للارتجال بعد ان تشبعوا بالنغم ولا نعلم هل ان التوشيه منسوجه على القطع المعروفة في تركيا "بالكرينك" والتي تولدت عنها التحميله المصرية أوئل هذا القرن ام ان التشابه جاء صدفة - اليكم شيئاً من توشيه مقام العراق معزوفة بالآلات التونسية التقليدية الي العود التونسي والباب والناي والطار والنغرات - وقد يطرأ خروجالمغني في ارتجال تلحين قصيد معروف اثناء التوشيه يتبعه موشح او زجل ولقائل ان يقول كيف الم يسبق التغني بالموشحات والجواب هوان القطع السابقة تعرف بالبطايحي ولا يلحن فيها لا معقوع ولاحد من الموشح واطلاق كلمة موشح ف الاصطلاح الموسيقي التونسي يدل على التغني بكامل الموشح الو باغلب اجزائه على ان يقع الخروج في كل مقطع منه الى نغم جديد مغاير للاصلي ويقع الرجوع الى الاول في قفل كل مقطع ويجري الزجل علندنا مجرى الموشح ومما تجدر الاشارة اليه هوان الموشحات التي هذا شانها اغلبها ذات تلحين تونسي واشهر ما عرف منها موشحه ابن سنا الملك "" كللي يا سحب تيجان الرب بالحيلي " وموشحه صفي الدين الحلبي = شق جيب الليل عن نحر الصباح وموشحه الشيخ شعيب دفين تلمسان

أنت بما قد سقيت شارب من رحيق كان او كدر  
سهمك في الغير فيك صائب مالك عن نصله مفر

وبعد ان تتم التوشية ياتي دور البراول وهي مجموعة من الزجال الو الموشحات ملحنة على وزن سريع وقد اخذ التونسيون هذه الكلمة واسعملوها في اللغة الدارجة واطلقوها على الاسراع بالشيء حتى ينتهي في اقرب وقت ممكن وقد كنا نسمع الى الاطفال في حيننا عند ابواب "كراكوز" يقولون لصاحبه برولهم بولهم ! والمقصود بذلك المتفرجين السابقين أي اسرع لم القصة واستعملو ايضا هذه الكلم دلالة على الاقناع بكلام غير مفهوم وتستعلم مثلا في

= من فضلك ما تبرولنيس وهذا لعله ماخوذ من تاثر السامع بالبراول في النوبة بدون ان يتمكن من فهم نظم قطعها وذلك لسرعة وزنها الموسيقي كما ستسمعون

فبعد البراول التي يذكرنا وزنها وسرعة موسيقى الجاز الحديثة تدخل الفرقة في عزف مقدمة موسيقية على وزن الدرغ يليه موشح او زجل ملحن على هذا الوزن ولعله سمي ابالدرج لانه يحكى المشية المتزنة الخالية من السرعة والمعروف انه يقال درج الشيخ أي مشي -

بعد الدرغ في النوبة ياتي ما يعبر عنه بالخفيف فهو متحد مع الدرغ من حيث تركبه من مقدمة مسويقية وقطعة غنائية ومن حيث دائرته الوزنية الا انه اسرع منه بقليل كما تلاحظون في القطعة الموالية -

وبعد هذه القطعة ياتي ابا ن ختم النوبة ويكون ذلك ف اغلب الاحيان بقطع دارجة وعربية يتناول موضوعها التوحيد بالخالق سبحانه وتعالى وذكر صفاته والتوسل اليه وطلب المغفرة على وزن اتحدت بالختام به جميع اقطار المغرب العربي فمنه ما طالعه

من ظفر بالحكمة من الحكيم يلتذ بالنعيم

ومن الذ طالعه = هيبتك في قلبي محددة يا ملك الملوح

ان النوبة وان كانت مشتملة على قطع اندلسية الا ان الترتيب الذي وضعها فيه التونسيون وتناقلهم لها بواسطة السمع لا غير ولا يخفي ما يقع ادخاله عفوا من الاصوات على الشيء المحفوظ لا سيما وان الغناء العربي يلحن في خطوطه العامة وتعطي الحرية للمغني لزيادة بعض الحركات والنبرات ويسمح له حتى بتطويل القطعة وباعادة بعض البيئات مع تنوع يرتجله حسبما يميله التقارب الروحي الذي يتوجد بينه وبين المستمعين الحاضرين معه فكل هذه مع ما نعلمه من نسبة بض قطع من نوبة المزموم لاحد جهاذة الفن التونسي المرحوم الشيخ احمد الوافي يجعلنا نوقن بان النوبة هي من التراث التونسي لا الاندلسي ويدعم لنا هذه النظرية وجود قطع عديدة في مختلف البلدان المغربية ذات نظام واحد وتلحين مغاير تماما وذا لم يتمكن الاسلاف من ضبط هذا النوع من التراث الموسيقي قلنا عظيم اشرف بغلق ابواب الريبة والشك حيث وقع تدوين جميع النوبات التي كانت محفوظة في صدور عدد كبير من شيوخ الفن الذين لا قوا ربهم خلال العشرين سنة الماضية نذكر منهم السادة رشيد ابن جعفر محمد الدرويش الطاهر المهيري على بانواس الصادق الفرجاني وقد برزت ثمرة مجهود هذا التدوين في تزويد فرقة الاذاعة الوطنية به وسماعنا له يوميا وفي تلقينها لبناء المعاهد والمدارس حتى اذا ما تسنى لهم التبحر في هذا الفن بالارتواء من احواض البلاد الاجنبية فسوف يذهبون بعدما تاصل فيهم فنهم ولا يخاف عليهم حينئذا من الضياع في شخصية الغير ويجعون لوطنهم وقد تسلحوا بالاطلاع

على مدى تقدم البلدان الأخرى وعن طرق جديدة في التأليف والعزف يطبقونها على فنهم ليحتل مكانة اللائقة به وتبز به البلاد مثلما برزت في بقية ميادين الحياة .